



الغناء والموسيقى في اليمن مدارس متنوعة

هل الموشح الأندلسي يماني في الأصل

اليمن مهد الموسيقى العربية رفيقة الفرح والحزن والحرب

المناسبات كالحروب والأعراس والأعياد، وأكثر ما يغلب عليه المديح والتفاخر، وهو ليس للهوى أو الغزل.

وقد برز "الزامل" بشكل قوي في السنوات الأخيرة واستخدمه الفرقاء اليمنيون بدرجة أولى لتأجيج مشاعر انتصارهم وتهديد خصومهم بالهزيمة، ويكاد يكون أبرز وسائل الإعلام الحربي التي استخدمت في الحرب التي يشهدها اليمن، نظرا لقلته البسيطة التي يفهمها العامة، إضافة إلى قدرته على إثارة الحماسة وسهولة تناقله عبر وسائل التواصل الاجتماعي.

ويؤكد باحثون أن "الزامل" لعب عبر التاريخ اليمني دورا خطيرا في الحروب إيقادا وتأجيجا؛ فقد نشأ تلبية لحاجة اجتماعية استتعت مثل هذا الفن، وكان ظهوره في اليمن قديما جدا وليس بوسع أحد تحديده بزمن معلوم، حيث إن الفنون والألوان الأدبية تبدأ بحالات فردية أحادية يميزها عصرها على أنها تقليدية ما تلبث أن تجد أرضها في الواقع الاجتماعي، من خلال التجربة والتكرار والتعدد التي تبلور قالبها العام، فتبدأ بالتوسع والانتشار.

طرب دون موسيقى

يتميز الموشح اليمني بطريقة أدائه التي تتم عن طريق أعضاء فريق كامل ودون استخدام أي آلات موسيقية مستعصين عن ذلك بقوة حناجرهم واختلاف طبقات أصواتهم التي تتحد معا في سبيل التأثير على السامع من خلال المضمون وإماتة ذلك بواسطة الأداء الموسيقي للحلال.

وعلى الرغم من توارث هذا الفن العريق عبر أجيال مختلفة في اليمن إلا أن الوثائق لبدائياته لا يزال مجالا للتكهنات التي لم تكشف حتى الآن عن أسرار هذا الفن الإبداعي الذي ارتبط إلى حد كبير بالجوانب الدينية من حيث مضمونه الذي يعزج بين الحب الدنيوي والعشق الآخروي.

غير أن بعض المهتمين بدراسة الموروثات الشفهية يعيدون بدايات الإنشاد اليمني بالطريقة المعروفة اليوم إلى خمسة قرون خلت متجاوزين بعض النظريات الفضاضة التي ترى أن بدايات الموشح اليمني تعود إلى إنشاد كعب بن زهير في حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنشاد حسان بن ثابت في حضرة أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب، ووضع منصة لحسان بن ثابت للإنشاد في مسجد رسول الله كما يقول البعض.

في الأساس التحضير للنغم وتحديد اللحن فيما بعد، وحين ينطق المغني الحروف الثلاثة (د ا ن) فهذه الحروف الثلاثة هي مقدمة استطلاعية وتحضيرية لاستكمال بنية اللحن ليأخذ دورته الكاملة في مصهر الألحان ويتشكل منها بروز اللحن الجديد له خصائص موسيقية ثم ينطلق الشعر مربوطا بالحنان الدان ويقال لذلك اللحن في حضرموت فن الدان أو صوت الدان.

وعن المراحل التي مر بها "الدان" حتى خروجه في شكله النهائي يضيف عمير "الدان الحضرمي أول ما يبدأ بالهيمية والنغم ثم تأليف ووضع اللحن وترابط أجزائه بفعليلة (دان) ومن هذه الأحرف الثلاثة التي قد تختصر في النغمة أو تطول أو تمد فإنها تبقى التفعيلة الجزئية لأصل نغمات والحنان الدان، وذلك ما يجعل الدان الحضرمي نغما ولحنا له أصوله وجذوره وتفعيلته التي بقيت في محيط أساسه الأول منطلقا من الدندنة والهمهمة في تأليف اللحن ثم يأتي دور الكلمة الشعرية التي يقولها الشاعر ثم يأتي دور الغناء بعد تحديد اللحن".

نشأ فن "الزامل" الشعبي اليمني في سياق التحولات السياسية والاجتماعية العنيفة عبر مراحل طويلة غلب عليها طابع الصراعات الداخلية والحروب وعدم الاستقرار، الأمر الذي تطلب تطويل الفنون الشعرية لتصبح أكثر حماسة وتؤنيرا وإلهابا لمشاعر المستمعين.

وعلى الرغم من ارتباط "الزامل" بالحرب بالدرجة الأولى إلا أن استخدامه امتد في فترات الاستقرار القليلة ليشمل كل مناحي الحياة اليومية من أعراس ومناسبات اجتماعية شتى قبل أن يعود في السنوات الأخيرة إلى مهمته الأساسية كبيدق في صفوف الأطراف المتحاربة في اليمن.

وعن الخلفيات الثقافية والاستخدامات الاجتماعية لهذا الفن اليمني الخاص، الذي يمكن القول إنه المعادل الموضوعي لفنون أخرى شبيهة في الجزيرة العربية مثل فن "الشيلة" في الخليج، يؤكد الباحث في التراث الشعبي اليمني علوان الجيلاني أن "الزامل" هو ضرب من الشعر الغنائي الشعبي الذي ينشد في المحافل باعتباره لونا شعبيا يحمل الكثير من المضامين والرسائل العميقة ويصفها ببلاغة في بيتين من الشعر أو أكثر ويؤدي مصحوبا في أماكن كثيرة برقصة العبيدة والعديد من

جعلته معلما فنيا يحظى باهتمام خليجي وعربي، ملحقا خارج أطواره الفلكلورية التقليدية، بعد أن أدخلت عليه الآلات الموسيقية، ليتحول من أداء وترنيم صوتي فقط إلى مزيج فني متكامل.

ويعرف الدان الحضرمي في صورته الأولية بأنه نظم شعري يقدم بصورة غنائية من دون استخدام الموسيقى، عدا ما تبدهه حنجرة المؤدي وهو ربما ما يفسر سبب تسميته بالدان حيث تغلب عليه "الدندنة" الذاتية التي يتفاعل معها المستمعون في الغالب طربا وترديدا وإكمالا، قبل أن يتولى "الغان" تحويل "الدندنة" إلى "أغنية". وفي الأصل يتولى الشاعر تلحين دانه ومن أشهر شعراء الدان في حضرموت الشاعر الراحل حسين أبوبكر الحضار الذي شكل مع الفنان أبوبكر سالم فنانا ساهم في إخراج فن الدان من إطاره اليمني إلى الفضاء الخليجي والعربي.

الدان الحضرمي مدرسة

متكاملة الأركان، فهو

يتميز بكونه شعرا له

أسلوبه الخاص وبالرقص

المرافق له

وتتعدد أنواع وأغراض الدان حيث يؤدي في المساجلات الشعرية ويغلب عليه المدح والتفاخر والحب، كما يستخدم للتعبير عن القضايا السياسية والاجتماعية، أما أبرز أنواعه فهي "الريش" و"الحقيقي" و"الهبيش" والأخير يتميز بالإيقاع السريع ومرافقته برقصة الشرح التي تسمى "الهبيش" كذلك.

ويقدم الشاعر والباحث اليمني المهتم بالتراث الحضرمي صالح سالم عمير وصفا لهذا النمط الغنائي الفريد، قائلا "الدان الحضرمي نغمات موسيقية وإيقاعات فنية مطربة تطرب الروح وتبعث على الشجن، وهو أكثر انتشارا في حضرموت لأنه يعزج بصدر عن إحساس الناس وأمانيتهم وتطلعاتهم وهمومهم والأهم وشعورهم العاطفي، وتطلق مع توقيعات الحانه وتقاسيمها الغنائية المنسابة الكلمات الرقيقة العذبة والمعيرة. وهو أيضا نغم ولحن له صفة قديمة لدى كل فئات المجتمع الحضرمي وهو نوع من الشعر العامي المغنى بالفاظ وأوزان معينة، لعلها تشبه بعض ما في الأندلس قديما من الموشحات".

ويرى عمير أن الدان قد سبق الشعر في استخدامه وليس العكس، ويقول "في اللغة يأتي معنى الدندنة في الكلام وندن فلان أي نغم لا يفهم منه كلام، فإن لفظه ما يدل عليه الدان يمكن أن يكون إلى الهمهمة والتغنييم وليس إلى الشعر، وبهذا يكون الدان هو الأصل وليس الشعر أصل الدان. وتجمع المعاجم على أن الدندنة هي نغم، فلفظة دان بحروفها الثلاثة تدل على نمط معين من الألحان يسبق إلى المهمة والتي هي

حكم الدولة الرسولية (القرن الرابع عشر)، وبعد أن تبدل الحكم في أواخر القرن السادس عشر أصبحت صنعاء مركزا سياسيا جديدا إضافة إلى كونها مركزا رئيسيا لهذا النوع من الموسيقى. ولهذا اتخذ الغناء الصنعائي الشكل والهبة اللذين مازال يُعرف بهما حتى الآن".

وتصاحب هذا النمط من الغناء التان لم يتم استخدامهما في أي مكان آخر، هما: القنبوس/ الطربي (العود اليمني) بأوتاره الأربعة ويتم العزف عليه بواسطة رئيسة طائر، إضافة إلى إحدى الآلات الإيقاعية التي يعزف عليها بالنقر وهي جنوبه بالقنبوس، يضيف العكوري (هو عبارة عن صحن نحاسي (صحن ميمياء)، وعن مميزات العود اليمني أو ما يعرف في شمال اليمن بالطربي وفي جنوبه بالقنبوس، يضيف العكوري (هو عود يتميز بصدر أصغر من ذلك الذي يوجد في العود الشرقي، ممتد بمقبض أجوف (رأس العود) ويصنع عادة من خشب الطنب أو المشمش... ويغطى بالجلد... ويمتاز العود اليمني بأن لديه أربعة أوتار فقط هي الجتيم والرخيم والأوسط والحازق".

وقد ساعد صغر حجم العود اليمني على تمكن العازفين من إخفائه في زمن تحريم الغناء حيث كان العازفون يخفونه في كم الثوب، أو يصنعون أعوادا قابلة للطبي ليسهل إخفاؤها. وفي بداية الأربعمينات من القرن الماضي صار العود الشرقي بديلا عن العود اليمني لدى المطربين.

وتعود أقدم التسجيلات الغنائية بالعود اليمني إلى الشيخ محمد الماس والشيخ أبوبكر باشراحيل حيث قاما بتسجيل مجموعة من الأغاني الصنعائية على آلة الطربي أو القنبوس من تسجيلات شركة "أوديون" في عدن عام 1938.

أما في الشمال فإن أقدم التسجيلات الغنائية المصاحبة للعود اليمني تعود إلى الفنان الشيخ قاسم الأخفش، حيث قام بتسجيل ما يقارب عشر ساعات لإذاعة صنعاء في منتصف الخمسينات من القرن الماضي.

الدان الحضرمي

يصف الكثير من النقاد الفيين الدان الحضرمي بأنه أحد الماداميك الرئيسية التي قام عليها جزء كبير منهم من مدارس الغناء في الجزيرة العربية، إلى جانب مدارس فنية أخرى نشأت في اليمن وامتد أثرها إلى مختلف مناطق الخليج العربي. ويتميز الدان الحضرمي بكونه مدرسة متكاملة الأركان، فهو يتميز من حيث كونه شعرا له أسلوبه الخاص والفريد وكذلك طريقة أدائه والرقص المرافق له، والتي تشكل رباعية إبداعية فريدة تترجم في فنانها بين الشعر والغناء والموسيقى والرقص كذلك.

ويتميز بيميز فن "الزامل" بأسلوبه الإنشادي وفن "البالة" التي يراها البعض المعادل الموضوعي للدان أساسيات المدرسة الفنية في شمال اليمن، التي تتكى على تراث "الشعر الحميني" والتي أنتجت روائع الغناء الصنعائي، طور "الحضارم" في أقصى شرق اليمن أسلوبهم المتميز الذي تعود أصوله إلى التراث الشعبي، قبل أن يمر بمراحل تطوير حديثة وحثيئة

ارتبط اليمنيون منذ وقت مبكر في إيقاعات حياتهم اليومية بالفنون الموسيقية والغنائية، واستخدموها في أفراحهم وأتراحهم وحتى على شواهد قبورهم، كما باتت جزءا من طقوسهم اليومية. وتحكي العديد من النقوش والصور علاقة اليمنيين قديما بالفن والموسيقى وهي العلاقة التي مازالت مظهرها بارزة، على الرغم من تراجعها في بعض المراحل بفعل الحروب والصراعات وبروز الأفكار المتطرفة.

التعزي واللون الياقعي واللون البدوي وغيرها.

ويؤكد الجيلاني أن الرصيد الضخم الذي تراكب في الموروث الفني اليمني امتد حتى عصور الإسلام المختلفة حيث تطور الغناء اليمني على ثلاثة محاور أهمها محور "السماع الصوفي" الذي كان يقدم في زبيد على أنغام العبدان والنايات والطارات والدقوف، وقد وصلت شهرة موسى قوير في القرن الرابع عشر الميلادي إلى درجة أسطورية، ومحور الغناء النخبوي وكانت ترعاه الدولة مثل سلاطين الدولة الرسولية في زبيد وتعز واشتهر في تلك الفترة مغنون من أمثال "الكبش" أو ولاية الدولة العثمانية في كوكبان أو أئمة الدولة القاسمية في صنعاء حيث اشتهر مغنون من أمثال عبدالرحمن العلوي.

ونتيجة لتطور الغناء ابتكر الشعراء اليمنيون اللون "الحميني" و"الموشح اليمني" الذي بدأ في زبيد منذ القرن الثالث عشر الميلادي ليصل إلى ذروته في صنعاء وحضرموت خلال القرون التالية، ثم ليلقي بظلاله على الغناء في الجزيرة العربية عامة حتى اليوم. وإزاء ذلك كله يأتي الغناء الشعبي الذي تنطوي تحته العشرات من الألوان بحسب تنوع وتعدد مناطق اليمن وهو الذي يشكل المخزن للفنون اليمنية عامة.

الغناء الصنعائي

تتميز الأغنية الصنعائية بعدد من الخصائص من حيث طريقة أدائها والآلات الموسيقية الفريدة التي ترافقها، بحسب رفيق العكوري مدير مركز التراث الموسيقي اليمني الذي يقول إن "الغناء الصنعائي هو الشكل التقليدي للموسيقى والموشح في اليمن من خلال تاريخه الغني الممتد عبر التاريخ وحتى وقتنا الراهن، حيث تعود بدايته إلى فترة



صالح البيهثاني صحافي يمني

عدن - علاقة وثيقة تجمع الغناء والموسيقى في اليمن بكافة تفاصيل الحياة اليومية والمناسبات العامة والخاصة، السعيدة والحزينة، بما في ذلك الجنائزية منها، حيث يظهر أحد النقوش التي يعتقد أنها تعود إلى تاريخ الدولة القبتانية (500 ق م) شاهد قبر تبدو فيه سيدة تمسك بالة موسيقية قريبة من العود وتنسبه إلى حد ما العود اليمني "الطربي" الذي مازال يستخدم على نطاق ضيق لأغراض بحثية وتوجد منه نسخ أصلية في المتحف اليمني.

وتتكرر النقوش من هذا النوع على شواهد القبور القديمة، حيث تم العثور على نقش آخر، تظهر فيه سيدة تمسك بالة موسيقية، كما عثر على تمثال لامرأة تعزف على القيثارة. وتفسر الصور الأثرية من هذا النوع ارتباط المرأة في المقام الأول بالغناء والموسيقى والرقص في التاريخ اليمني؛ ففي إحدى المنحوتات التي تصور الحياة الاجتماعية في ذلك العصر تبدو مجموعة من النساء يرقصن في مناسبة غير معلومة فيما تعزف لهن امرأة على الآلة الموسيقية.

ويذهب الباحث الأنثروبولوجي اليمني علوان الجيلاني إلى أن الموسيقى والغناء في اليمن هما أصل الموسيقى والغناء العربي من خلال عشرات الألوان والألحان التي يعبق بها الغناء اليمني، ومازالت موجودة على شكل "مهاجل" و"مهاهد" و"مواويل" و"وزيات" و"دلوغ" و"مطوحات" و"قذابات" و"دان" و"دحيف" و"سوارع" والتي اصطلقت منها حناجر المغنين خلال مئات السنين والوانا كثيرة مثل اللون الصنعائي واللون الحجبي واللون العدني واللون الحضرمي واللون التهامي واللون



موسيقى مرتبطة بالحياة